حوار الحضارات
بين الحقيقة والوهم

محمد الكتاني

ظلّ التاريخ الأوروبّي الحديث خاضعاً على مدى القرنين الأخيرين لتحوّلات عميقة، إن لم نقل تحوّلات جذرية، تمثّلت في التقدّم العلْمي والتكنولوجي الباهر، وفي استثمار خيرات الطبيعة، واكتشاف الطاقة وتسخيرها للإنسان، واختراع الأسلحة الفتّاكة ووسائل النقل السريعة، ممّا مكّن أوروبّا من غزو القارّات وعبور المحيطات، واختراق الفضاء، واكتساح أسواق العالم بفائض الإنتاج الصناعي. فهذه العوامل هي التي غيّرت مختلف مظاهرالحياة، ليس فقط في أوروبّا، ولكن لدى شعوب عديدة، وجعلتها تتطوّر تطوّراً هائلاً متسارعاً، حملها على التخلّي عن أساليب حياتها العتيقة، بل وعن حضاراتها السابقة أمام زحف حضارة أوروبّا.

أما ما عرفه النصف الأخير من هذا القرن، على وجه الخصوص من تلك التحوّلات في شتّى مظاهر الحضارة والعلوم، فهو بقدرٍ ما يدعو للإعجاب

والثقة في المستبقل فإنه يبعث على الدهشة والإشفاق على مصير الإنسانية. حيث يلاحظ المعنيون بالمصير الإنساني نمو العلوم والتكنولوجيا بوتيرة مذهلة، ويلاحظون ازدياد ثروات الأمم المتقدّمة، بفضل صناعاتها العملاقة، ويلاحظون تكاثر وسائل الاتصال والانتقال، ونشر المعرفة الإنسانية وتعميم مظاهر الرفاهية ووسائل الوقاية من الأمراض، وغزو الفضاء وإمكان الاتصال بالكواكب، وفي علاج الأمراض الفتّاكة وزرع الأعضاء البشرية وتعويضها، والتحكّم في الجينات، إلاّ أنهم يلاحظون من ناحية أخرى، استفحال التناقض بين هذه الإيجابيات وبين ظواهر أخرى، تزداد تفاقماً، مثل اتساع الهوة بين دول الشمال ودول الجنوب، واتساع رقعة الفقراء والمحرومين وذوي الخصاصة، وانتشار المجاعات والحروب الإبادية، وظهور العنف والإرهاب والاستهتار بالقيم الإنسانية، واستعلاء نزعات الهيمنة والإقصاء والانفصال والتطرّف. واختراع أسلحة الدمار الشامل، والإخلال بالمنظومة البيئية، واستئثار القلّة بخيرات الكوكب الأرضي. فهذه المتناقضات تتساكن في عالمنا وتتفاعل فيما بينها، وتهدد السلام العالمي، وتزج بالبشرية في أزمات أخلاقية وسياسيّة عميقة.

هل نعيش حقّاً بداية عصر السقوط الحضاري، وبصورة لم ندرك بعد وتيرتها ولا مآلاتها، ولا نعي تفاعلاتها المحجوبة عنّا بالانبهار أمام التقدّم التكنولوجي المدهش ؟ إن عدداً من مفكّري الغرب أنفسهم قد تحدّثوا عن مظاهر هذا السقوط الحضاري وعن التناقضات التي تتهدّد حضارة الغرب بالانبهار(1)، أم ترانا نعيش الانتقال إلى حضارة عالمية جديدة، لم نتبيّن بعد أفقها المنظور، ولا القيم التي تقوم عليها ؟ أحسب أن عدداً آخر من المفكّرين يأخذون بهذا الرأي، وينتصرون لحضارة الألفية الثالثة في ظل «العوْلمة».

وهناك من يعتبر الحضارة الغربية أمام مفترق الطرق[2]. وفي هذه الآونة كتب المفكّر السياسي فْرانْسيس فوكوياما عمّا سمّاه نهاية التاريخ، معتبراً انتصار الرأسمالية الليبيرالية على الشيوعية نهاية لتاريخ من الصراع، انتهى إلى نتيجته الحتمية بصورة لا رجعة فيها، واعتبر مفكّر آخر أن اختفاء ظاهرة الصدام بين الشرق والغرب بسقوط الاتحاد السوڤياتي هو تحوّل نحو بروز صراع آخر بين الغرب وبين الإسلام، معلناً أن هذه المرحلة من صدام الحضارات هي مرحلة المستقبل القريب. ذلك ما أعلنه الأمريكي صَمْويل هَنْتِگتون، أستاذ الدراسات الاستراتيجية في جامعة هارڤارد، الذي صاغ هذه المقولة على أساس بحث تحليلي ضمّنه كتابه الشهـــير : «صدام الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي الجديد»[3].

وقد أثار هذا الكتاب جدلاً كبيراً في الأوساط الفكرية والسياسية، وفي مختلف اللقاءات والندوات والمجلاّت في الغرب، وفي العالم الإسلامي، وكانت ردود الفعل على هذه النظرية متعدّدة ومختلفة، ولا شك في أنه برغم أساسها المرجعي المستخلص من تاريخ الصراعات الحضارية في العصور السابقة، فقد استفزت مشاعر أولئك الذين يتفاءلون بمستقبل الإنسانية في ظل السلام والتعايش بين الأمم والثقافات. وفي مقدّمتهم القادة السياسيون. ولذلك ظهرت مؤسّسات وأنشئت مراكز، ونظمت ندوات هنا وهناك، من أجل مواجهة فكرة الصدام ودحضها على أساس ربط جسور الحِوار بين الحضارات، ومن تلك المراكز مركز حوار روتِرْدام للحوار بين الشرق والغرب الذي أنشأته جامعـــة روتِرْدام بهولاندا، و«مركز التفاهم المسيحي الإسلامي» بجامعة جورج تاوْن بواشنطن. أما الندوات فكثيرة في هذا الشأن مثل ندوة أكاديمية المملكة المغربية عن «العولمة والهُوية»، وهو موضوع الدورة الأولى لسنة 1997. التي تصبّ في هذا

المجال. ومثل ندوة «أوروبّا والإسلام» التي نظمها مجمع آل البيت بالأردن بتعاون مع الجامعات السويدية سنة 1997، وندوات المجلس العالمي الإسلامي والمجلس البابوي للحوار بين الأديان بالڤاتيكان. وآخرها ندوة برلين عن «حوار الثقافات» التي انعقدت بدعوة من الرئيس الألماني، وذلك خلال شهر أبريل 1999. وفي هذا السياق نشير أيضاً إلى أن الأمين العام للأمم المتحدة السيد كوفي أنانْ ألقى بمركز الدراسات الإسلامية بأكسْفورد خلال يونيه 1999، محاضرة بعنوان «حوار الحضارات والحاجة إلى منظومة أخلاقية عالمية»، كما نذكر أيضاً أن الجمعية العمومية للأمم المتحدة قرّرت الإعلان عن اعتبار سنة 2001، سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات(4).

والملاحظ أن هذا الحوار الذي تتكرّر الدعوة إليه، له أكثر من عنوان، كما أن المفاهيم المستعملة فيه لاتخلو من الالتباس. وتصادفنا في البداية مقولات متعدّدة منها : «حوار الحضارات» و«حوار الثقافات» و«حوار الشرق والغرب» و«الحوار بين الأديان». قد يقال إن لكل مقولة مدلولها الدقيق الذي يعني مضموناً محدّداً. لكن مواجهة أي من هذه الموضوعات يفضي إلى الخوض فيها جميعها، لأننا نواجه فيها من حيث العمق الحوار بين الذات وبين الآخر، في أيّ مستوى من المستويات التي تظل بحكم التداعي والتكامل فيما بينها يفضي إلى ترابط بعضها مع بعض.

وبالنسبة للمفاهيم المستعملة، والتي لا تخلو من التباس كما قلتُ، نلاحظ في البداية أن مفهوم الحضارة على رأس تلك المفاهيم. فهو واضح وملتبس في نفس الوقت. فهو ملتبس وغامض لدى الباحثين المتخصّصين كعلماء الاجتماع، وعلماء الإثنولوجيا. فعلماء الاجتماع يعتبرون مفهوم الحضارة مفهوماً متميّزاً

ومستقلاً عن مفهوم الثقافة، لأن الحضارة عند هؤلاء هي مجموعة النظم والمؤسسات والأشكال السلوكية الاجتماعية المشتركة بين فئات مجتمع متقدّم، بما فيها النظام السياسي والاقتصادي والمؤسسات التربوية والإدارية، ونظم الدفاع والقضاء والقوانين السائدة.

وأما في سياق البحوث الإثنولوجية، فالحضارة مفهوم يرادف الثقافة تماماً، لأنه ليس بوسعنا حسب منهجية تلك البحوث، بحث أي حضارة، إلاّ من خلال ثقافة تسكنها، ومن خلال سلوك اجتماعي سائد تمليه قيم أخلاقية متّصلة بالعقيدة، أو بأي مذهب إيديولوجي.

ونستخلص من هذه المقارنة بين المفهومين أن الحضارة تخصّ وسائل الإنتاج المادّية، والتكنولوجيا المستعملـــة، وتوفير الخدمات التي يحتاجها المجتمع، بما فيها المؤسسات السياسية والاقتصادية والقانونية، التي تنظم الحياة العامّة. أما الثقافة فتخصّ القيم والمعتقدات والمنظومات الفكرية والمفاهيم السائدة لدى المجتمع. وهذا هو رأي علماء الاجتماع في الغالب. ولا سيما المدرسة الفرنسية.

ولذلك نعتقد أن الحوار بين الحضارات لا بدّ أن يعني الحوار بين الثقافات بالنسبة لمن يعتقدون أن الثقافة ترادف الحضارة، أما بالنسبة للذين يميّزون بينهما، فيعتقدون أن الحضارة ليست سوى وسائل تستخدمها الثقافة لإظهار قيمها، وبأن الحوار المقصود لا يتعلّق بالحضارة، لأنها لا تتعدّى الوسائل والأدوات المستعملة والمهارات والمهن والتكنولوجيا، وإنما يتعلق أساساً بما هو فكري وأخلاقي، ومؤثر في السلوك الإنساني، كالعقيدة والنظم الإيديولوجية.

فالحوار إذن حوار بين قيم فكرية ومناهج سياسية وثقافية، وفي هذا الإطار نفهم القصد من مقولات «الحوار بين الثقافات»، و«الحوار بين الإسلام والمسيحية» و «حوار الشرق والغرب».

وهناك التباس آخر يتعلّق بمفهوم «الحضارات»، لا يسوّغ استعماله إلاّ الذين يعتبرون الحضارة مرادفة للثقافة، كما هو السائد عند علماء الإثنولوجيا ومفكّري المدرسة الألمانية في علم الاجتماع. ومنشأ هذا الالتباس هو أننا جرينا على عادة الحديث عن «حضارات» بصيغة الجمع. مع أننا لا نعيش في الواقع إلاّ حضارة واحدة، تستأثر وحدها بالتحكّم في حياتنا. فنحن نعيش حضارة واحدة مشتركة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب. هي هذه الحضارة الغربية بآلياتها ومنتجاتها ونظمها وقوانينها. ولا نتفاوت إلاّ في مقادير الاستفادة منها. والشعوب المتخلّفة لايشغلها إلاّ هاجس تحديث حياتها. وتنمية طاقاتها وفق النموذج الحضاري الغربي لا غير. وأما ما تحتفظ به بعض الشعوب من حضارتها التليدة أو الموروثة، فلا يتجاوز مجالات محدودة، كنظم الأسرة وطقوس العبادة والحفاظ على اللغة القومية والقناعة بالحد الأدنى من مقومات الهُوية.

فإذا أخذنا بمفهوم الحضارة بالمعنى المادّي (النظم والمؤسسات والتكنولوجيا)، فليست هنالك سوى حضارة واحدة سائدة، هي حضارة الغرب، بينما هناك ثقافات متعدّدة يتمسّك بها أصحابها للحفاظ على هوياتهم. فالأوْلى أن نعتبر أن الحوار المطلوب بين الشرق والغرب لا يندرج في إطار «حوار حضارات»، وإنما في إطار «حوار ثقافات»، لأن الحضارة السائدة اليوم لا تعرف الاختلاف. وإنما تعرف التفاوت في التطبيق، وإذا كان هناك من اختلاف الشعوب فهو الاختلاف في القيم الثقافية، والمنظور الذي لكل منها عن رسالة الإنسان في الحياة، وعن القيم التي يجب بناء الحياة عليها.

وهناك التباس آخر يقع للبعض منّا عندما يتصوّر أنه يستطيع اقتباس نظم الحضارة الغربية في كثير من المجالات مع احتفاظه في نفس الوقت بهويته الثقافية الإسلامية. وهذه النزعة التلفيقية ظهرت عند بعض رواد الفكر التنويري في المشرق العربي، أي الذين تصوّروا إمكان عزل البنية الحضارية عن البنية الثقافية. فهل يمكن القول بأننا نستطيع الأخذ بحضارة الغرب بدون ثقافته وبقيمها الأخلاقية ؟ إن عالمنا الإسلامي يعيش هذه التجربة الصعبة. ذلك أننا نقبل على الحضارة الغربية، ونسعى لتكييف حياتنا معها، ونقيس تقدّمنا وتأخرنا بمقياس الاندماج فيها، ولكننا نأبى إلاّ أن نضع ثقافتها بمعزل عنها، ولا ندخل في حوار معها إلاّ على أساس الاحتفاظ بهويتنا الثقافية. وهذا حق مشروع، ولكنه يبدو معادلة صعبة، لأننا نعجز أن نحقّق التعايش بين حضارة الغرب من جهة، وبين ثقافة مناقضة لها من جهة ثانية. فما مدى جدية هذا الحوار الثقافي إذن، وما مدى قدرته على الصمود، ولو في نظر الغرب على الأقل ؟

أما المفهوم الثاني فهو الحوار. والحوار سلوك حضاري، وليس مجرّد محادثة بين عدة أطراف. وقد تمخض مفهوم الحوار المعاصر عن تجارب تاريخية طويلة هي التي تفسّر لنا بروز هذا المفهوم في الحياة الإنسانية المعاصرة. فهو ثمرة من ثمار شيوع الديموقراطيات والمناداة بحقوق الإنسان. كما أنه وليد الشعور بضرورة الاختلاف مع الآخر، والإقرار بهويته من منطلق الرغبة في الوصول إلى تفاهم حقيقي بين المتخالفين، على أساس الاعتراف بما لكل منهما من مشروعية الاختلاف والمغايرة. وانطلاقاً من البحث عن القاسم المشترك بينهم الذي يشكّل مرجعية تحملهما على التعايش والتوافق. فإذا نقلنا هذا المفهوم من مستوى الأفراد إلى حيز الجماعات، ومن الذوات إلى المنظومات الثقافية والحضارية، كما هو شائع في لغتنا اليوم، حين نقول: «حوار الحضارات» و

«الثقافات»، أو «حوار الشرق والغرب» أو «حوار الإسلام والنصرانية»، فإننا نعطي الحوار بعداً أعمق. وهو إنشاء علاقة تعايش وتوافق قائمين على انفتاح كل عالم على العالم الآخر. انطلاقاً من مبدإ احترام الخصوصية والهُوية، والدخول في تعاون مثمر لإنجاز مشروع حضاري، يقوم على روح السلام والاحترام المتبادل، ووضع حدّ للعداء الديني والعرقي والإيديولوجي، الذي لم تجْن منه الإنسانية خلال عصورها الماضية سوى الخراب، وتوريث الأحقاد والتطرّف. إنه الحوار الشامل والجماعي، متعدّد الأطراف، الذي يجب أن يجمع بين كل الشعوب والأمم ذات المصالح المشتركة، لتتجاوز خلافاتها العرقية والاقتصادية والسياسية. وبين كل الثقافات العليا لتتجاوز الانغلاق والتعصّب، وبين كل الأديان السماوية لتتجاوز رواسب الأحقاد والعداوات، ونزعات تزييف بعضها للبعض. فهل يمكن قيام حوار من هذا القبيل، بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، أو بالأحرى بين الغرب والعالم الإسلامي ؟ وذلك بالنظر إلى الحواجز النفسية المنيعة بينهما، وإلى الخلافات العميقة والسياسات المتناقضة ؟ وهل الغرب جادّ في دعوته إلى هذا الحوار، وهو لم يتحرّر بعد من نظرته المتجذّرة في فلسفاته عن ذاته، وعن الأخر ؟

هنا نواجه شروط قيام الحوار، وضرورة توفير مناخه النفسي، وأجواءه السياسية المؤثرة فيه. والشروط التي لا بدّ منها لقيام حوار حقيقي، ترجع إلى مؤهلات المتحاورين. إنها شروط تتعلّق بالمسلمين، أولاً من حيث قدرتهم على تشخيص ما يتحاورون دفاعاً عنه أو من أجله، من قيم الإسلام العليا ورؤيته الحضارية المتوازنة، كما أنها شروط للأوروبيّين أيضاً من حيث قدرتهم على التخلّص من رواسب النزعة الاستعمارية، ومن الأوهام الراسخة، ومن تشويه الحقائق التي استقرّت في عقولهم عن العالم الإسلامي وعن قيمه الحضارية.

وأول ما يتبادر إلى الذهن في حوار الحضارات بين العالم الإسلامي والغرب ما يتصل بنا نحن المسلمين في مواجهة هذا الموضوع، ومن المعلوم أن هذا الحوار يكاد يعني المسلمين دون غيرهم مع الغرب، باعتبارهم يمثّلون الحضارة والثقافة التي استعصى تذويبهما في التبعية المطلقة للحضارة الغربية. فعندما تحدّث المؤرخ البريطاني أرنولْد تُوينْبي في كتابه : «مختصر لدراسة التاريخ» عن الحضارات التي التقت مع الحضارة الغربية، والمجموعات البشرية التي تمثلها، وكيف تفاعلت معها، ذكر مجموعة شعوب شرقي أوروبّا ذات الثقافة الأرثوذوكسية المسيحية، والمجموعة الهندية، والمجموعة الصينية، واليابانية، والمجموعة الإسلامية، والمجموعة اليهودية، برغم ضآلة هذه الأخيرة، بالنسبة للمجموعات الكبرى. لكنه لاحظ أن المجموعة الإسلامية تميّزت وحدها في تفاعلها مع الغرب بصمودها في وجه حضارته. وهو ما يعكس الهُوية الصلبة للعالم الإسلامي، وقدرة ثقافة الإسلام على الاستمرار والتطوّر في نطاق الهوية ذاتها.

يضاف إلى هذه الخاصّية القوّة المعزّزة بالجغرافيا التي تتحكّم في معابر الاتصال بين الشرق والغرب، فالعالم الإسلامي يتوسّط الكرة الأرضية كحزام متماسك، يفصل بين العالمين المسيحي الأورثوذوكسي، والكاثوليكي. وبرغم وقوعه بين العالمين المتحالفين «مسيحياً»، فقد ظل صامداً برغم خوضه الصراع الطويل بينهما خلال العصور الوسطى. ثم لم يلبث العالم الإسلامي رغم خضوعه للاستعمار الأوروبّي أن استعاد استقلاله السياسي وانبعاثه الثقافي وصحوته الإسلامية. صحيح أن الحضارة الغربية تخترق اليوم العالم الإسلامي، ولكنه اختراق سطحي، لأنها لم تنفذ إلى الهوية الإسلامية، ولم تستطع تهميش ثقافة الإسلام، ولا تغييب الإحساس العميق بأن للإسلام رسالته المستمرة والمتواصلة. ولذلك يظل العالم الإسلامي يمثل عالماً قادراً على إحداث المفاجأة، وهذا ما

يجعل قادة الفكر والسياسة في أوروبّا لا يكفّون عن التخطيط للعالم الإسلامي لاحتوائه بطريقة أو بأخرى، ولا يكفون عن اعتباره قوة هائلة بشرياً ومادّياً واستراتيجياً.

هذا ما يدفع الغرب اليوم إلى الإعلان عن ضرورة قيام حوار الحضارات، أو قيام حوار الأديـــان، أو حوار الشرق والغرب، وهو لا يعني بذلك إلاّ العالم الإسلامي، وفي هذا السياق يتّضح أن أيّ حوار مهما تكن الصيغة المختارة له لا يعني في الواقع إلاّ حوار الحضارة الإسلامية، والحضارة الغربية، لأن كل المجموعات البشرية الأخرى الآسيوية تفاعلت مع حضارة الغرب، وأخذت بعلمانيته، بإقصاء المعتقد الديني عن مجال الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. أو لأن معتقداتها لا تملك أي رؤية شاملة تضاهي الأنظمة الغربية، ولا شرائع ولا قوانين اجتماعية. فالحوار بين الحضارات ينصرف في عمقه إلى علاقة العالمين الإسلامي والغربي بالدرجة الأولى. فنحن لا نسمع عن حوار بين اليهودية والمسيحية، ولا عن حوار بين الحضارة الغربية والحضارة اليابانية. فالعالم الإسلامي وحده فيما يبدو يمكنه أن يتحدّث عن رؤيـــة حضارية إسلامية شاملة، بما ينطوي عليه من قيم وأحكام شاملـــة، لأنه يعتبر الدين والسياسة متلازمين. وهذا ما يقلق الغرب الذي يعتبر الإسلام هو مصدر القلق بعد أن استعصى عليه ترويضه بأيّ شكل من الأشكال.

لكن، هل المسلمون اليوم مهيأون للدخول في الحوار مع الغرب من منطلق هذه القوّة الكامنة لديهم وتفعيلها لصالحهم ؟ ولا ينبغي أن نخدع أنفسنا بالهروب إلى الحديث عن الإسلام في حدّ ذاته كدين ذي رؤية حضارية شمولية متكاملة، لا خلاف عليها بيننا نحن المسلمين، وإنما يجب الحديث عن

المسلمين أنفسهم من حيث واقعهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي يشكو من خلل وظيفي مزمن، وتخلّف عائق عن مواكبة التقدم ومنافسة الغرب. فالحوار الذي نتحدّث عنه وننشده ليس المقصود منه بالنسبة للعالم الإسلامي إعداد دراسات نظرية عن قيم الإسلام، وعن مشروعه الحضاري، والدفاع عنهما بحماس. فهذا النوع من الحوار الذي يتوخّاه المسلمون أو بعضهم لأنهم يجيدونه وحده، ليس سوى تعبير عن الهروب من واقع محبط، إلى تراث أو تاريخ نسترجع فيه شخصيتنا. ومثل هذا الحوار لا يجد آذاناً صاغية لدى المحاور الأوروبّي، الذي لا يهتم بما ندّعيه من مزايا كامنة في ديننا، وإنما يهتم بما نعيشه بالفعل، وبما ننتجه، وبما قد ننافسه فيه من تكنولوجيا أو صناعة، أو بما نبرهن عليه نحن الشعوب الإسلامية من التزام بحقوق الإنسان وإشاعة الديموقراطية في حياتنا السياسية، وإدماج شعوبنا في مشاريع التنمية المتوازنة وإشراكها في التدبير السياسي لبلداننا، باعتبار ذلك قيما كونية لا تتعارض مع القيم الإسلامية، وكما أننا ننظر إلى الحضارة الغربية من خلال واقع الأوروبّيين وانضباطهم مع القانون، والنظم الديموقراطية، وقيم العقلانية والبحث العلْمي، وتوفير الحرّية الفردية، كذلك لا ينظر الغربيّون إلى حقائق الإسلام، وإنما ينظرون إلى الإسلام من خلال واقعنا، ويسقطون عليه أسباب التخلّف والانحطاط الذي نعيشه، وفي مقدمة ذلك عجز العالم الإسلامي سياسياً عن تحقيق ما يعتبره الغرب شروطاً ضرورية لتحقيق تنمية بشرية شاملة، تقوم على تكريم الإنسان وتخويله كامل حقوقه. فضلاً عن عجز العالم الإسلامي عن تفعيل قيمه الأخلاقية في حياته اليومية وعلاقاته الاجتماعية، كالإخلاص والصدق والاتقان للعمل، وكالعدل والمساواة وتكريم الإنسان، وعجزه عن تحقيق التضامن والاتحاد بين أقطاره، بصورة إيجابية تستطيع فرض ثقلها في هذا الحوار في عصر لا وزن فيه

إلاّ للتكتلات الجهوية والإقليمية التي تضع ثقلها البشري وقدراتها الاقتصادية وتكاملها الصناعي في سياق الحوار فيما بينها.

وهكذا يختلف المشهدان الحضاريان بين الشرق والغرب. فالغرب يمثل حضارته، ويجسّد ثقافته في كل مجالات حياته، ويبرهن على أن تفعيل آليات هذه الثقافة هو الذي مكّنه من الهيمنة والقوّة والغنى والنظام والتماسك بين وحداته وبين بلدانه. وبذلك يعطي المثال الحي على ما يدافع عنه من قيم ثقافية وإنجازات حضارية. أما العالم الإسلامي فلا يمثّل في واقعه ما يدعيه لنفسه، ولا يُجيد سوى الحديث عن قيم الإسلام وثقافتــــه التي عجز عن تحقيقها.

وهنا يتساءل المرء عن طبيعة حوار حضاري بين عالمين يختلفان أساساً حول منطق الحوار نفسه، حوار ينخرط فيه العالم الإسلامي وهو ما يزال يعتمد في حياته على تكنولوجية الغرب، وعلى نظمه وقوانينه، كما يعتمد أساساً على مساعداته، ويرتهن بمديونيته الثقيلة، يضاف إلى ذلك أن العالم الغربي يدخل الحوار الحضاري برؤية حضارية واحدة. وبثقافة ترتكز على قيم محدّدة، كالحرّية الفردية والعقلانية الصارمة والإنتاج المادّي والبنيات السياسية والاجتماعية الصلبة. أما العالم الإسلامي فلا يمكن القول أنه يملك تلك الرؤية الحضارية إلاّ نظرياً، ولا تقوم بنياته السياسية والاجتماعية إلاّ على أنماط قبلية أو طائفية عتيقة متخلّفة. فما يعيشه المسلمون بالفعل لا يتفق مع الرؤية الإسلامية للحضارة المتحدث عنها. وإذا كان الإسلام يخاطبنا كأمّة واحدة فإن واقعنا بعيد عن تشخيص هذه الأمة الموحّدة، التي تشيع فيها الكرامة والحقوق الإنسانية والتوازن الاجتماعي. بل هناك خريطة لتيارات فكرية ودينية معقّدة تجعل بعض المسلمين يشنّون حرباً على بعضهم الآخر، خريطة نجد فيها السلفيّين المستنيرين والأصوليّين

المتشدّدين والتحديثيين الآخذين بالعقلانية الرافضة للنقل، وهم يعيشون صراعاً دائراً يهدر طاقات الأمّة الإسلامية. وما يزال بيننا من يُكفّر الذين لا يقولون بقوله حتى في الأحكام الفرعية. ومن يُنكر على العقل قدرته على النظر واكتشاف الحقيقة. ومن يعتبر المخالفة في الرأي تستوجب الجهاد أو تكفير المجتمع. ومن لا يزال يعتبر الحرّية الإنسانية والديموقراطية بمعناهما النبيل مفاهيم غربية مستوردة، مقحمة على ديننا ومجتمعنا. فمن يحاور الغرب إذن باسم الإسلام أو باسم المسلمين ؟ وبعض هؤلاء الذين يظنون أنهم وحدهم يمثّلون الإسلام يرفضون الحوار من أساسه، وبعضهم الآخر الذي ينبهر بالغرب لا يجد مبرّراً لهذا الحوار. والجماهير العريضة من المسلمين لا حضور لها في المشهد السياسي، ولا مشاركة لها في الفعل الثقافي، ولا في تمثيل إرادتها والتعبير عن اختياراتها، لأنها غارقة في الأمّية محرومة من التكوين الثقافي الذي يمكنها من النظر ومن الاختيار، خاضعة للاستبداد السياسي المقنع بالديمقراطية.

أما إذا نظرنا إلى مؤهّلات المحاور الأوروبّي، فنحن أمام معوقات من نوع آخر تعود إلى الرواسب المتكلّسة في ذهنية الغرب عن الإسلام والمسلمين، بفعل تاريخ مشحون بالعداء للإسلام، يحجب عن الغرب كثيراً من الحقائق، وتجعله ينخدع بكثير من المقولات الجاهزة المشوهة والنابية في حق الإسلام والمسلمين. ولانحتاج إلى أن نستحضر في هذا السياق الأسلوب االتقليدي في تشويه تاريخ العالم الإسلامي، المتبع في كتابة التاريخ في المراجع الأساسية المعتمدة لدى الغربيّين، التي كتبها المستعمر نفسه بنزعة الحقد والاستصغار، أو كتبها القساوسة والمبشرون الذين لم يردّد سَلمان رُشدي سوى بعض هذيانهم.

وهناك عائق آخر يحول دون تحقيق حوار فعلي، وهو منظور الغرب إلى ذاته، والتي سمّاها بعض المفكّرين[5] «بالانغلاق الإثني» الذي تحوّل إلى عقدة نرجسية. واعتبرها بعض المحلّلين الإثنولوجيين عائقاً أساسياً في فهم الغرب للأخر[6]، وهو ما يتجلّى في الدراسات الإثنولوجية التي أنجزها الباحثون الغربيّون. فالإناسي الأوروبّي لم يتصوّر قطّ قيام حضارة إنسانية خارجة عن حركة التاريخ الأوروبّي ابتداء من اليونان إلى اليوم. ومن الملموس من خلال كل حوار ثقافي بين الفكر الغربي والعالم الإسلامي أن ما يرمي إليه الغرب من الحوار، ليكون في نظره مجدياً، هو تقريب العالم الإسلامي من استيعاب قيم الغرب وتمثيلها في حياته السياسية والاجتماعية، وفي مقدمتها إقصاء الدين الإسلامي من هذه الحياة العامّة، وحصره في النطاق الشخصي، كما فعلت أوروبّا مع المسيحية، وإفساح المجال أمام حرّية الاعتقاد وعلمنة الدولة، وتخويل حقوق الإنسان بما فيها ما يتعارض مع الأحكام النصيّة للشريعة الإسلامية، فإذا استطاع العالم الإسلامي أن يستوعب قيم الغرب على هذا النحو فذلك هو المقصود من الحوار في نظره.

ويرى بعض المفكّرين أنه ليس هناك حوار حضاري، ولا صراع حضاري في نفس الوقت، وإنما هناك صراع اقتصادي يخوضه الغرب لتدعيم هيمنته والأخذ بزمام النظام الرأسمالي وإزاحة الحدود أمامه، وتحطيم كل القيم التي تقف في طريقه باسم الحداثة[7].

وسواء أخذنا بهذا التفسير الاقتصادي أو بالتفسير الثقافي والحضاري، فإن النتيجة تظل واحدة، وهي أنه ليس هناك إمكان لإجراء حوار جاد بين عالمين، أحدهما يفرض حضارته ونظرته، والآخر مشتّت القوى متناقض الدوافع، مسلوب الإرادة. نعم هناك من يتشبّت بالأمل في مستقبل واعد، في السلام

والتعايش الحضاري، منطلقاً من معطيات تاريخية واجتماعية قد يكون لها وزنها الموضوعي.

ومن المعلوم أنه لا توجد حضارة أو ثقافة عاشت وحدها بمعزل عن غيرها من الحضارات والثقافات، فكما أننا في التاريخ لا يمكن أن نكتب عن أمّة بمعزل عن علاقاتها بالأمم الأخرى، وعما ساد تلك العلاقات من حرب أو سلم أو تبادل للمنافع والمنتجات، فكذلك لا نستطيع أن ندرس حضارة أو ثقافة إلاّ من خلال تفاعلها مع غيرها في الأخذ والعطاء. وقد تأثرت الحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية في مطلع عصر النهضة، وبما حملته الثقافة الإسلامية من مقومات الثقافة اليونانية. ثم حلّ دور تأثر الحضارة الإسلامية بالحضارة الغربية في العصر الحديث، في حدود استيعاب القيم العليا والنظم الصالحة للاقتباس. غير أن فترة الاستعمار الغربي وتفوقه العسكري والتكنولوجي، وتروثه المادّية التي كونها خلال عهد الاستعمار جعلته يتشبّع بروح الاستعلاء وينظر إلى الشعوب الأخرى نظرة استصغار. وعندما يطالب اليوم بالحوار على أساس ما يدّعيه من احترام للهوية الثقافية والحضارية للعالم الإسلامي، فهو يعمل بموازاة ذلك على فرض حضارته على أساس التخطيط لعولمة حضارية، لا يتاح فيها للهُويات الحضارية الأخرى أن تحافظ على وجودها. و«العولمة» كما يحددها البعض عبارة عن فلسفة تركيبية واندماجية تسعى لجعل العالم المتنوّع والمتعدّد والمتناقض في هوياته وثقافاته ولغاته إطاراً واحداً تصاغ كل مكوّناته في قالب واحد وتوظيف إيديولوجية الحداثة في نشر هذا الوعي بضرورة قيام عالم واحد، عالم ثورة المعلومات وتكنولوجية الاتصال وتقنيات الإعلام، عالم تشدّ كل أجزائه وأقطاره شبكات إعلامية تحوله إلى قرية كونية كما سمّاها مارشال ماكلوهان، أستاذ الإعلاميات في جامعة تورُنْتو. وهكذا تبدو «العولمة»[8] متناقضة مع طبيعة

الإقرار بهويات الآخرين، وبمبدإ الاختلاف من حيث هو، عاملة على جعل الحوار أحادي القطب، ولا يرجى له من أهداف سوى احتواء الغير.

أجل علينا أن نستوعب التحوّلات التي بدأت في العقود الأخيرة من هذا القرن. والتي تتمثل في كون الحداثة والتكنولوجيا لم تبقيا حكراً على الغرب، فأصبحت بعض دول الشرق تنبعث من غفوتها، وتستوعب تلك التكنولوجيا المتطوّرة، ويخترق إنتاجها الصناعي الأسواق العالمية. ولنا أن نمثل لهذا التحوّل بأجنحة اليابان التي أصبحت ترفرف في سماء الغرب، والتي بلغ من تأثيرها أن أصبحت تهدّد الاقتصاد الغربي، في نظر المحلّلين الغربيّين أنفسهم. ولا نعتقد إلاّ أن روح الشرق تنبعث من جديد انبعاثاً حضارياً يقف على مفترق الطرق بين الانسياق للعوْلمة أو بين الاحتفاظ بالهُوية التي تلائم بين قيم المادة والروح، ويحقّق التوازن الأخلاقي المنشود لحضارة إنسانية متوازنة.

وفي هذا السياق يتعين على عالمنا الإسلامي الاندماج في هذه الحركة الجديدة الواعدة، وذلك عن طريق إعادة ترتيب شؤونه الداخلية بإجراء حوار فعْلي بنّاء بين مختلف مكوّناته ودوله، لصياغة رؤية إسلامية موحّدة، وموقف حضاري متماسك، وبناء كيان أمة إسلامية فاعلة، من خلال تفعيل طاقات شعوبه وتنميتها ليتعزّز بها صمود العالم الإسلامي في مواجهة تحدّياته. ولا سيما حين نعلم أن الإسلام هو دين عالمي، وله رؤيته الشمولية لبناء عالم تتضافر جهود أممه في سبيل استتباب السلام ونشر العدل.

أما ما يتعين أن يدركه الغرب، فهو أن العالم بمختلف أممه لا يمكن أن يتكيّف مع حضارة واحدة مهما كانت من القوة والشمول، وأن لكل أمة حقّها المشروع في إثبات هُويتها الثقافية وتنمية قدراتها في إطارها. وأن من

مستلزمات السلام العالمي والتعايش الدولي فسح المجال أمام كل ثقافة إنسانية لتحقق هُويتها وتساهم بعطائها، وتتفاعل مع غيرها. ففي هذا التنوع سرّ البقاء والاستمرار والتلاقح والازدهار.

الهوامش

1) يذكر في هذا السياق على سبيل المثال كتاب الفيلسوف الألماني أُزفالد اشبنگْلر «تدهور الحضارة الغربية» في مجلدين، الذي ترجمه أحمد الشيباني، بيروت. وكتاب : «سقوط الحضارة » لكوليولسن. ترجمه إلى العربية أنيس زكي حسن.

2) انظر كتاب «الحضارة على مفترق الطرق» لرادوفان ريشته، ترجمة يحيى علي أديب.

3) صدر سنة 1996 عن دار النشر سايمون اندشوستر – نيويورك ، ويعزز هذا الاتجاه ما نشرته مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية للصحفية جوديت ميريل من كون الإسلام يعتبر العدو الطبيعي للغرب. انظر جريدة الأهرام بتاريخ 98/3/23.

4) انظر جريدة الشرق الأوسط، ع 7517، بتاريخ 99/6/28.

5) المهدي المنجرة «الحرب الحضارية الأولى»، ص 22.

6) أحمد المطيلي : «الإناسة الأوروبية وقراءة الذات»، مجلة دراسات شرقية، باريس، يناير 1988.

7) المهدي المنجرة : «الحرب الحضارية الأولى»، ص 37.

8) «المسألة الحضارية»، زكي الميلاد، ص 25.